العرض القرآني

لسيرة الرسول

(صلى الله عليه وسلم)

إعداد

الدكتور عمر يوسف حمزة

الطبعة الأولى

١٩٩٦

الناشــر

دار أسـامـه للنشـر والتوزيع

الأردن ـ عمـــان

ص.ب ١٤١٧٨١ ـ تلفاكس ٨٦٢٦٢٣

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الأولى ١٩٩٦م

بســـــم الله الرحمـــن الرحيــــم

* مقدمـــــــة *

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام المرسلين وسيد الأولين والآخرين سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، قال تعالى: **﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾**(١) وعلى آله وأصحابه ومن سار على نهجهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وبعـــــــد:

فإن عرض القرآن الكريم لسيرة رسول الله (ﷺ) من أعظم ما يمكن أن يتناوله المشتغلون بالعلم بالدراسة والتمحيص، واستخراج الدرر واللآلىء التي وردت في كتاب الله تتحدث عن حبيبنا المصطفى (ﷺ)، وقد عُنيَ القرآن الكريم بسيرة رسول الله (ﷺ) لأن البعثة المحمدية، هي أعظم حدث في تاريخ البشرية، وقد ختم الله تعالى بمحمد أنبياءه وبرسالته أديانه، وأعلن في كتابه العزيز قوله الحق: **﴿ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾**. (٢)

وقد لزم من ذلك أن يتضمن هذا الدين ما يكفل سعادة الإنسان في دنياه وفي آخراه، وأن تكون شريعته صالحة لكل زمان ومكان، وأن يكون ناسخاً لما قبله من الأديان، يُستبقي منها ما يصلح، ويلغي سواه، قال تعالى: **﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، ومهيمناً عليه﴾**. (٣)

والمراد بالكتاب في قوله **﴿وأنزلنا إليك الكتاب﴾**: القرآن، الذي أنزله بالصدق **﴿مصدقاً لما بين يديه من الكتاب﴾** قال ابن عباس: يريد كل كتاب أنزله الله تعالى. (٤)

وفي (المهيمن) أربعة أقوال:

أحدهما: أنه المؤتمن رواه التميمي(٥) عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير، وعكرمة، وعطاء، والضحاك، وأرباب هذا القول يقولون: المعنى: أن القرآن مؤتمن على ما قبله من الكتب.

والثاني: أنه الشاهد، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الحسن وقتادة.

والثالث: أنه المصدق على ما أخبر من الكتب، وهذا قول ابن زيد وهو قريب من القول الأول.

والرابع: أنه الرقيب الحافظ، قال الخليل.[٦]

قال ابن كثير[٧] وقوله تعالى: **﴿ومهيمناً عليه﴾** قال ابن عباس: مؤتمنا عليه، وقال: القرآن أمين على كل كتاب قبله، وروي عن عكرمة، وسعيد بن جبير ومجاهد وغيرهم نحو ذلك.

وقال ابن جريج: القرآن أمين على الكتب المقدمة قبله، فما وافقه منها فهو حق، وماخالفه منها فهو باطل، وعن ابن عباس: أي: حاكماً على ما قبله من الكتب. وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى، فإن اسم (المهيمن) يتضمن هذا كله، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره. ولهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها، وتكفل الله تعالى حفظه بنفسه الكريمة، فقال: **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾**.[٨]

ولقد أنزل الله هذا الكتاب العظيم على محمد (ﷺ) هدى للناس: وبينات من الهدى والفرقان، وخاطبه الله بقوله: **﴿ياأيها النبي، إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾**.[٩] وقال جل شأنه: **﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾**[١٠] وأمره أن يصدع في الناس بهذه الحقيقة: **﴿قل ياأيها الناس، إني رسول الله إليكم جميعاً﴾**.[١١] وقد جاءت البشائر به (ﷺ)، على ألسنة الأنبياء، في التوراة والإنجيل، وقد حكى القرآن الكريم مضمون ذلك فقال جل شأنه: **﴿وإذ قال عيسى ابن مريم: يابني إسرائيل إني رسول الله إليكم، مصدقاً لما بين يدى من التوراة، ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾**.[١٢]

قال ابن كثير: فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني إسرائيل، وقد أقام في ملأ بني إسرائيل مبشراً بمحمد وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين الذي لا رسالة بعده ولا نبوة.[١٣]

ومما يؤكد أن من أسماء رسول الله (ﷺ) (أحمد) ما أخرجه الشيخان عن جبير بن مطعم

رضى الله عنه، قال: قال رسول الله (ﷺ): (إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قَدَمَي، وأنا العاقب الذي ليس بعده أحد - واللفظ لمسلم). (١٤)

وجاء في التوراة في سفر التثنية: إن الله تعالى قال لموسى عليه السلام (قل لبني إسرائيل: إني أقيم لهم آخر الزمان نبياً مثلك من بني إخوتهم. .) وكل نبي بعث بعد موسى كان من بني إسرائيل، وأخرهم عيسى، فلم يبق أن يكون من بني إخوتهم إلا نبينا محمد (ﷺ) لأنه من ولد إسماعيل، وإسماعيل أخو إسحاق، وإسحاق جد بني إسرائيل، فهذه هي الأخوة التي ذكرت في التوراة، ولو كانت هذه البشارة بني من أنبياء بني إسرائيل لم يكن لذكر أخوتهم معنى. (١٥)

ولقد كان أحبار اليهود والنصارى، يعرفون صدق محمد (ﷺ)، ويرون فيه العلامات المذكورة في كتبهم، قال تعالى: ﴿**الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، الذين خسروا أنفسهم فهو لا يؤمنون**﴾. (١٦)

والمراد بالكتاب في الآية: التوراة والأنجيل، وهذا قول الجمهور.

وفي هاء (يعرفونه) ثلاثة أقوال: -

أحدهما: أنها ترجع إلى النبي (ﷺ)، قاله السدى، وروي عن عمر بن الخطاب أنه قال لعبدالله بن سلام: إن الله قد أنزل على نبيه بمكة ﴿**الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم**﴾ (١٧) فكيف هذه المعرفة؟ فقال: لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابنى، ولأنا أشد معرفة بمحمد (ﷺ)، مني بابني، فقال عمر: وكيف ذلك؟ فقال: إنى أشهد أنه رسول الله حقاً، ولا أدري ما يصنع النساء.

والثاني: أنها ترجع إلى الدين والنبي، فالمعنى: يعرفون الإسلام أنه دين الله عز وجل، وأن محمداً رسول الله، قاله قتادة. (١٨)

وقد أثنى الله تعالى على بعض أهل الكتاب الذين عرفوا الحق فاتبعوه وهو الإيمان بمحمد (ﷺ) فقال تعالى: ﴿... **الذين يتبعون الرسول النبي الأمي، الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة، والإنجيل...**﴾. (١٩)

وأما الذين استكبروا وتمسكوا بالباطل، فقد عنفهم الله ووبخهم، بمثل قوله تعالى: ﴿**يا أهل الكتاب، لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون**﴾[٢٠] أي تعلمون أنه حق، وأن نعت النبي (ﷺ) موافق لما في كتبكم، ثم تكفرون به ﴿**يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل، وتكتمون الحق، وأنتم تعلمون**﴾[٢١] أي لم تخلطون بين الحق والباطل بالقاء الشبه والتحريف والتبديل؟ وتكتمون ما في كتبكم من صفة محمد (ﷺ)، وأنتم تعلمون ذلك.[٢٢]

ثم حكى الله تعالى نوعاً آخر من مكرهم وخبثهم، وهو أن يظهروا الإسلام في أول النهار ثم يرتدوا عنه في آخره، ليشككوا الناس في دين الإسلام. فقال ﴿**وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفر وآخره لعلهم يرجعون**﴾[٢٣] قال ابن كثير: وهذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم، وهو أنهم تشاوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار، ويصلوا مع المسلمين فإذا جاء آخر النهار، ارتدوا إلى دينهم، ليقول الجهلة من الناس: إنما ردهم إلى دينهم إطلاعهم على نقيضه وعيب في دين المسلمين!.[٢٤]

وفي هذا العصر، وبعد أن أصاب الإنسانية ما أصابها من العنت، والتردي، في هوة الشقاء والحيرة والتمزق، بسبب بعدها عن الله، وتخبطها بين مناهج الأرض الوضعية، التي لا تزيدها مع الأيام إلا خبالاً وضلالاً.

وبعد أن عجزت الديانات المحرفة - على اختلاف - نحلها - عن هداية اتباعها، فضلا عن هداية الآخرين، وأخفقت الفلسفات الوضعية، التي لم تعد تليق بنضج الإنسان علمياً وعقلياً ومعرفياً، ولا بكرامته كعبد لله لا لغيره من المخلوقين، فضلاً عن كونها لا تشبع له روحاً، ولا تقنع عقلاً، ولا ترضي ضميراً ...

بعد هذا كله ... لم يبق إلا الإسلام ... كلمة الله الأخيرة للبشرية، والوثيقة السماوية الباقية التي لم يتطرق إليها تحريف ولا تبديل.[٢٥]

فمن أراد أن يعرف المنهج العملي للإسلام بخصائصه وأركانه، فليعرفه مفصلاً مجسداً في سيرة رسول الله (ﷺ) وسنته القولية والعلميةوالتقريرية.

إن السيرة النبوية هي التفسير العملي للقرآن، والتطبيق الواقعي والمثالي أيضاً للإسلام، فقد كان النبي (ﷺ) هو القرآن مفسراً والإسلام مجسماً.

وقد أدركت هذا المعنى، أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بفقهها وبصيرتها، ومعايشتها لرسول الله (ﷺ)، فعبرت عن ذلك بعبارة مشرقة بليغة، حين سئلت عن خلق رسول الله (ﷺ)، فقالت (كان خلقه القرآن). [٢٦]

إن الذي يدرس سيرة رسول الله (ﷺ) يجد فيها ما يعينه على فهم القرآن الكريم وتذوق روحه ومقاصده، إذ أن كثيراً من آيات القرآن تفسرها وتوضحها الأحداث التي مرت برسول الله (ﷺ) وموقفه من تلك الأحداث.

عرض القرآن لسيرة رسول الله (ﷺ)

يعتبر القرآن الكريم هو المصدر الأول لفهم سيرة رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه، لأنه تناول الملامح العامة لحياة النبي الكريم (ﷺ)، وقد عرضها بأحد أسلوبين: -

الأول: سرد بعض مشاهد من حياته وسيرته، عليه الصلاة والسلام.

الثاني: التعليق على الوقائع والأحداث التي تعرض لرسول الله (ﷺ) وموقفه منها.

أما فيما يتعلق بالأسلوب الأول فإننا نجد القرآن الكريم يتناول جوانب من حياته ونشأته وسيرته عليه الصلاة والسلام وذلك على النحو التالي: -

أولاً: حديث القرآن عن نشأته عليه الصلاة والسلام:

قال جل شأنه: ﴿**ألم يجدك يتيماً فأوى، ووجدك ضالاً فهدى**﴾ [٢٧] واشتملت هاتان الآيتان على تعداد ما أفاضه الله سبحانه على رسوله (ﷺ) من النعم، أى وجدك يتيماً لا أب لك فآوى: أى جعل لك مأوى تأوي إليه. [٢٨]

وهذا استئناف مسوق مساق الدليل على تحقيق الوعد، أي هو وعد جار على سنن ما سبق من عناية الله بك من مبدأ نشأتك ولطفه في الشدائد باطراد بحيث لا يحتمل أن يكون ذلك من قبيل الصدف لأن شأن الصدف لا تتكرر فقد علم أن اطراد ذلك مراد لله تعالى.

والمقصود من هذا إيقاع اليقين في قلوب المشركين، بأن ما وعده الله به محقق الوقوع قياساً على ما ذكره به من ملازمة لطفه به فيما مضى وهم لا يجهلون ذلك، عسى أن يقعلوا عن العناد ويسرعوا إلى الإيمان، وإلا فإن ذلك مساءة تبقى في نفوسهم وأشباح رعب تخالج خواطرهم، ويحصل مع هذا المقصود امتنان على النبي (ﷺ)، وتقوية لاطمئنان نفسه بوعد الله تعالى إياه. [٢٩]

واليتيم: الصبى الذي مات أبوه، وقد كان أبو النبى (ﷺ) توفي وهو جنين في رحم أمه في شهره الثاني من الحمل. [٣٠]

والايواء: مصدر أوى إلى البيت، إذا رجع إليه فالايواء: الارجاع إلى المسكن، فهمزته الأولى همزة التعدية، أى جعله آوياً وقد اطلق الايواء على الكفالة وكفاية الحاجة مجازاً أو استعارة، فالمعنى أنشأك على كمال الادراك والاستقامة، وكنت على تربية كاملة مع

أن شأن الأيتام أن ينشأوا على نقائص، لأنهم لا يجدون من يعنى بتهذيبهم وتعهد أحوالهم الخُلقيّة.

ولقد تولى الله تعالى تربية محمد (ﷺ) وأدبه فأحسن تأديبه وبعثه متمماً لمكارم الأخلاق، فكان تكوين نفسه الزكية على الكمال خيراً من تربية الأبوين.[٣١]

قوله تعالى: ﴿**ووجدك ضالاً فهدى**﴾ فيه ستة أقوال.

أحدهما: ضالاً عن معالم النبوة، وأحكام الشريعة، فهداك إليها، قاله الجمهور منهم الحسن، والضحاك.

والثاني: أنه ضل وهو صبي صغير في شعاب مكة، فرده الله إلى جده عبد المطلب، رواه أبو الضحى عن ابن عباس.

والثالث: أنه لما خرج مع ميسرة غلام خديجة أخذ إبليس بزمام ناقته فعدل به عن الطريق، فجاءه جبريل، فنفخ إبليس نفخة وقع منها إلى الحبشة، ورده إلى القافلة، فمن الله عليه بذلك، قاله سعيد بن المسيب.

والرابع: أن المعنى: ووجدك في قوم ضُلال، فهداك للتوحيد والنبوة، قاله ابن السائب.

والخامس: ووجدك نسياً فهداك إلى الذكر، ومثله: (أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى)[٣٢] قاله ثعلب.

والسادس: ووجدك خاملاً لا تذكر ولا تعرف، فهدى الناس إليك حتى عرفوك، قاله عبدالعزيز بن يحيى، ومحمد بن علي الترمذي.[٣٣]

والراجح هو القول الأول، ويقرب منه القول الخامس. أما بقية الاقوال فمتكلفة. ولا دليل على صحتها.

وليس المراد بالضلال هنا اتباع الباطل، فان الأنبياء معصومون من الشرك قبل النبوة باتفاق أهل العلم.[٣٤]

ولم يختلف المحققون من العلماء أن نبينا (ﷺ) لم يصدر منه ماينافي أصول الدين قبل رسالته، ولم يزل العلماء يجعلون ما تواتر من حال استقامته ونزاهته عن الرذائل قبل نبوته دليلاً من جملة الأدلة على رسالته، بل قد شافه القرآن به المشركين بقوله: ﴿**فقد لبثت فيكم**

عمراً من قبله أفلا تعقلون﴾ [٣٥] وقوله : ﴿أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون﴾[٣٦] ولأنه لم يؤثر أن المشركين أفحموا النبي (ﷺ) فيما أنكر عليهم من مساو ىء أعمالهم بأن يقولوا فقد كنت تفعل ذلك معنا. [٣٧]

وقوله تعالى: ﴿ووجدك عائلا﴾ قال أبو عبيدة: أي : ذا فقر، وأنشد:

وما يدري الفقير متى غناه ... وما يدري الغني متى يعيل[٣٨]

أي يفتقر ، قال ابن قتيبة : العائل: الفقير ، كان له عيال، أو لم يكن يقال: عال الرجل: إذا افتقر، وأعال : إذا كثر عياله.

قوله تعالى: (فأغنى) قولان:

أحدهما: رضاك بما أعطاك من الرزق، قاله ابن السائب، واختاره الفراء. وقال: لم يكن غناه عن كثرة المال، ولكن الله رضاه بما آتاه. [٣٩]

والثاني: فأغناك بمال خديجة عن أبي طالب. قاله جماعة من المفسرين منهم ابن الجوزي والشوكاني وغيرهما. [٤٠]

ويستدل للقول الأول بما روي البخاري ومسلم في (صحيحيهما) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): (ليس الغني عن كثرة العرض ولكن الغني غني النفس). [٤١]

وروي مسلم في (صحيحه) عن عبدالله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله (ﷺ): (قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه). [٤٢]

وقيل : وجدك فقيراً من الحجج والبراهين فأغناك بها، والله أعلم.

والأرجح هو : تفسير الغنى في الآية بما هو المتبادر منه، وهو الغني بالمال، بما يسر الله له من أسبابه ، سواء بمشاركة خديجة، أم بالزواج منها.

ثانياً : حديث القرآن عن شرح صدره (ﷺ) :

قال الله تعالى : ﴿ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك﴾ .[٤٤]

احتوت هذه السورة الكريمة على ذكر عناية الله تعالى لرسوله (ﷺ) بلطف الله له وإزالة الغم والحرج عنه ، وتفسير ما عسر عليه ، وتشريف قدره لينفس عنه ، فمضمونها شبيه بأنه حجة على مضمون سورة الضحى تثبيتاً له بتذكيره سالف عنايته به ، وإنارة سبيل الحق وترفيع الدرجة ليعلم أن الذي ابتدأه بنعمته ما كان ليقطع عنه فضله ، وكان ذلك بطريقة التقرير بياض يعلمه النبى (ﷺ) واتبع ذلك بوعده بأنه كلما عرض له عسر فسيجد من أمره يسراً كدأب الله تعالى في معاملته فليتحمل متاعب الرسالة ويرغب إلى الله عونه .[٤٥]

قوله تعالى : ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ الشرح : الفتح بإذهاب ما يصد عن الإدراك ، والله تعالى فتح صدر نبيه للهدى والمعرفة بإذهاب الشواغل التي تصد عن إدراك الحق ، ومعنى هذا الاستفهام : التقرير ، أي : قد فعلنا ذلك .[٤٦]

قال ابن كثير : يقول الله تعالى : ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ يعني : إنَّا شرحنا لك صدرك ، أي نورناه وجعلناه فسيحاً رحيباً واسعاً ، كقوله : ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾[٤٧] وكما شرح الله صدره ، كذلك جعل شرعه فسيحاً واسعاً سمحاً سهلاً لا حرج فيه ولا إصر ولا ضيق .[٤٨]

ومعلوم أن الاستفهام إذا دخل على النفي قرره كما في هذه الآية ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ فصار المعنى : قد شرحنا لك صدرك ، وإنما خص الصدر لأنه محل أحوال النفس من العلوم والإدراكات ، والمراد الامتنان عليه (ﷺ) ، بفتح صدره وتوسيعه حتى قام بما قال به من الدعوة ، وقدر على ماقدر عليه من حمل أعباء النبوة وحفظ الوحي .[٤٩]

ومثل هذا قول الله تعالى : ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾[٥٠] والمعنى : أي وسعه لقبول الحق وفتحه للإهتداء إلى سبيل الخير ، قال السدي : وسع صدره للإسلام للفرح به والطمأنينة إليه ، قوله (فويل للقاسية قلوبهم) والمعنى : أفمن وسع الله صدره للإسلام فقبله واهتدى بهديه (فهو) بسبب ذلك الشرح (على نور من ربه) يفيض عليه كمن قسا قلبه لسوء اختياره ، فصار في ظلمات الضلالة وبليات الجهالة؟ قال

قتادة : النور كتاب الله بـه يؤخذ وإليه ينتهى . قال الزجاج : تقـدير الآية : أفمن شرح الله صدره كمن طبع على قلبه فلم يهتد لقسوته .[٥١]

والصدر مراد به الاحساس الباطني الجامع لمعنى العقل والإدراك .

وشرح صدره (ﷺ) كناية عن الإنعام عليه بكلُ ما تطمح إليه نفسه الزكية من الكمالات وإعلامه برضى الله عنه وبشارته بما سيحصل للدِّين الذي جاء به من النصر .

هذا تفسير الآية بما يفيده نظـمها واستقلالها عن المرويات الخارجية ، ففسرها ابن عباس بأن الله شرح قلبه بـالإسلام ، وعن الحسن قـال : شرح صدره أي مُلِيءَ علماً وحكماً ، وقال سهل بن عبدالله التستري : شرح صدره بنور الرسالة .

وعلى هذا الوجه حمله كثير من المفسرين ، ونسبه ابن عطية إلى الجمهور .[٥٢]

ويجوز أن يجعل الشرح شرحـاً بدنياً ، وروى عـن ابن عباس أنـه فسره به ، وهو ظـاهر صنيع الترمذي ، إذ أخرج حديث شـق الصدر الشريف في تفسير سورة الإنشراح ، فتكون الآيـة إشارة إلى مـرويات في شـق صـدره (ﷺ) شقاً حسيـاً ، وهو المروي بعـض خبره في الصحيحين . والمروي مطـولاً في السيرة والمسـانيـد[٥٣] . فـوقع بعـض الروايـات في الصحيحين أنه كان رؤيا في النوم ، ورؤيا الأنبياء وحي ، وفي بعضها : أنه كان يقظة ، وهو ظاهر ما في البخاري ، وفي صحيح مسلم أنه كـان يقظة وبمرأى من غلمان أترابه ، فقد كان ذلك أثناء وجوده في مضـارب بني سعد من إرهاصات النبـوة ودلائل إختيار الله إياه لأمر جليل ، وقد رويت هذه الحادثة بطرق صحيحة وعن كثير من الصحابة[٥٤] منهم أنـس بن مـالك فيما يـرويـه مسلم في صحيحـه : أن رسـول الله (ﷺ) أتاه جبريـل وهـو يلعب مـع الغلمان ، فأخذه فصرعه ، فشق عن قلبه ، فإستخرجـه ، فاستخرج منه علقة فقال هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسلهَ في طست من ذهب بماء زمزم ، ثم أعاده إلى مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه – مرضعته – ينادون : أن محمداً قد قتل ، فاستقبلوه وهو ممتقع اللون .[٥٥] وجاء في صحيح مسلم – أيضاً – عن أنس بن مالك قال : رأيت أثر الشق ، في جلد صدر النبـى (ﷺ) وفي بعض الـروايات أن النبـي (ﷺ) كـان بين النائم واليقظـان ، والروايـات مختلفة في زمانه ومكانه مع اتفاقها على أنه كان بمكة .[٥٦]

واختلاف الـروايات حمل بعض أهـل العلم على القول بـأن شق صدره الشريـف تكرر

مرتين إلى أربع، منهـا حين كان عند حليمة كما جـاء في صحيح مسلم[٥٧] ، وفي حـديـث عبدالله بن أحمد بن حنبل أن الشق كان وعمر النبي (ﷺ) عشر سنين.[٥٨]

والذي في الصحيـح عن أبي ذر: أنه كان عنـد المعراج به إلى السماء، ولعل بعضهـا كان رؤيا، وبعضها حساً.

قال ابن دحية في معراجه وابن المنير وغيرهما:[٥٩] الصحيح أن شق الصدر مرتان، قال شيخ الإسلام ابن حجر: بل ثلاث مرات، ووقع له (ﷺ) ذلك - أي شق الصدر - ثلاث مرات: الأولى وهو صغير في بني سعد عند مرضعته عند حليمة - رضى الله عنها - الثانية عند البعثة، الثالثة ليلة الإسراء.[٦٠]

وليس في شـيء من هذه الأخبـار على اختلاف مـراتبها ما يـدل على أنه الشرح المراد في الآية، وإذ قد كـان ذاك الشق معجزة خارقة للعـادة يجوز أن يكون مراداً وهو مـا نحاه أبو بكـر بن العـربي في الأحكـام[٦١] وعليه يكـون الصدر قد أطلـق على حقيقته وهو البـاطن الحاوي للقلب.

ومن العلماء فسر الصدر بالقلب. حكاه القاضي عياض في الشفاء[٦٢]. يشير إلى ما جاء في خبر شق الصدر من إخراج قلبه وازالة مقر الوسوسة منه.

وكـلا المعنيين للشرح يفيد أنـه إيقاع معنـى عظيم لنفـس النبي (ﷺ) إمـا مباشرة وإمـا باعتبار مغزاه كما لا يخفى.

وتكرار حادثة شـق صدره الشريف (ﷺ) ثلاث مرات له حكَـمٌ، فالأول كان في زمن طفولته (ﷺ) لينشأ على أكمل الأحوالِ من العصمـة من الشيطَان، ثم عند البعث زيادة في إكرامـه ليتلقى ما يوحـى إليه بقلب قـوي في أكمل الأحوال من التطهير، ثـم عند الإسراء ليتأهب للمناجاة.

وقـال العلامـة ابن حجـر: ويحتمل أن تكـون الحكمة في هـذا الغسل لتقـع المبالغـة في الأسباغ لحصول المرة الثالثة، كما هي في شرعه (ﷺ) في الطهارة.[٦٣]

قال الإمـام السيوطـي: وهذه الحكمة مـن أعظم الحكـم وألطفها وأدقهـا، وحقها أن تكتب بماء الذهب على صفحات القلوب لإرتفاع محلها.[٦٤]

وليست الحكمة من هذه الحادثة والله أعلم استئصال غدة الشر في جسم رسول الله (ﷺ) إذ لو كان الشر منبعه غدة في الجسم أو علقة في بعض أنحائه، لأمكن أن يصبح الشرير خيراً بعملية جراحية، ولكن يبدو أن الحكمة هي إعلان أمر الرسول (ﷺ) وتهيئته للعصمة والوحي منذ صغره بوسائل مادية، ليكون ذلك أقرب إلى إيمان الناس به وتصديقهم برسالته، إنها إذاً عملية تطهير معنوي، ولكنها اتخذت هذا الشكل المادي الحسي، ليكون فيه ذلك الإعلان الإلهي بين أسماع الناس وأبصارهم وان كنا لا ننكر أن بين الجسم والنفس، أو الظاهر والباطن تبادلاً ملحوظاً في التأثير والتأثر.

وأياً كانت الحكمة، فلا ينبغي - وقد ثبت الخبر ثبوتاً صحيحاً - محاولة البحث عن مخارج لنخرج منها، بهذا الحديث عن ظاهره وحقيقته إلى التأويلات الممجوجة البعيدة المتكلفة، ولن تجد من مسوغ لمن يحاول هذا - رغم ثبوت الخبر وصحته - إلا ضعف الإيمان بالله تعالى.[٦٥]

ثالثاً : بدء نزول الوحى كما يصوره القرآن الكريم:

قال الله تعالى : ﴿ **ياأيها المدثر، قم فأنذر، وربك فكبر، وثيابك فطهر**﴾ [٦٦]. سبب نزول هذه الآيات جاء في الصحيحين عن جابر بن عبد الله قال : حدثنا رسول الله (ﷺ) قال : جاورت بحراء شهراً، فلما قضيت جواري [٦٧] نزلت فاستبطت بطن الوادي[٦٨] فنوديت، فنظرت أمامي، وخلفي، وعن يميني، وعن شمالي، فلم أر أحداً، ثم نوديت فرفعت رأسي فإذا هو في الهواء (يعني جبريل عليه السلام) فأقبلت إلى خديجة، فقلت: دثروني دثروني ، فأنزل الله عز وجل ﴿**يأيها المدثر، قم فأنذر**﴾ .[٦٩]

قال المفسرون: فلما رأى جبريل وقع مغشياً عليه، فلما أفاق دخل إلى خديجة، ودعا بماء فصبه عليه، وقال دثروني، فدثروه بقطيفة، فأتاه جبريل فقال: ﴿**ياأيها المدثر**﴾ .[٧٠]

روي البخاري عن السيدة عائشة – رضي الله عنها – تصف كيفية بدء الوحي وتقول:

(أول ما بدىء – رسول الله (ﷺ) – الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، . وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق، وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال له إقرأ، فقال ما أنا بقاريء، قال فأخذني فغطني حتي بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال إقرأ: فقلت ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿**إقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، إقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم**﴾[٧١] فرجع بها رسول الله (ﷺ) يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد – رضي الله عنها – فقال: زملوني، زملوني حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي، فقالت خديجة : كلا والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد ابن عبدالعزي، وكان ابن عم خديجة، وكان أمرأ قد تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الأنجيل في العبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: ياأبن عم، اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة: ياابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله (ﷺ) خبر ما رأى فقال له ورقة: هذا الناموس (أي جبريل أو الوحي) الذي نزل على موسى ياليتني فيها جذعاً (شاباً قوياً) ليتني أكون حياً،

إذ يخرجك قومك[٧٢]، فقال رسول الله (ﷺ) أو مخرجي هم؟ قال نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم يلبث ورقة أن توفى وفتر الوحي.[٧٣]

واختلف في الزمن الذي فتر فيه الوحي فقيل ثلاث سنوات، وقيل أقل من ذلك والراجح ما رواه البيهقي من أن المدة كانت ستة أشهر، ثم روي البخاري عن جابر بن عبدالله قال وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس علي كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه، فرجعت فقلت زملوني، زملوني[٧٤]، فأنزل الله عز وجل: ﴿**يا أيها المدثر قم فأنذر** - إلى قوله - : **والرجز فاهجر**﴾ فحَمِي الوحي وتواتر.[٧٥]

رابعاً : عرض القرآن لمراحل الدعوة :

الدعوة الإسلامية مرت بأربع مراحل :

أ - **المرحلة الأولى** : الدعوة سراً ، واستمرت ثلاث سنوات .

ب - **المرحلة الثانية** : الدعوة جهراً وباللسان فقط دون قتال ، ونزل القرآن الكريم ، يأمر الرسول (ﷺ) أن يجهر بالدعوة في قوله تعالى : **﴿فأصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾** .(٧٦)

قال ابن عباس : فامض لما تؤمر ، وقال موسى بن عبيدة : مازال رسول الله (ﷺ) مستخفياً حتى نزلت هذه الآية ، فخرج هو وأصحابه(٧٧) . وأمر الله تعالى رسوله (ﷺ) بقوله : **﴿وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، فإن عصوك فقل إني بريء مما تعلمون ، وتوكل على العزيز الرحيم ، الذين يريك حين تقوم ، وتقلبك في الساجدين﴾** .(٧٨)

واستجاب الرسول (ﷺ) لأمر ربه وقام بتنفيذه ، فصعد على جبل الصفا فجعل ينادي ، يابني فهر ، يابني عدي ، واكتنفه الناس من كل جانب ، فقال لهم بعد أن بين لهم ما كان عليه قبل هذه الدعوة : (فإني نذير لكم بين عدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم . . ألهذا جمعنا ، فنزل قوله تعالى : **﴿تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنهُ مَالُهُ وما كسبَ ، سيصلى ناراً ذاتَ لهب ، وامرأته حمالةَ الحطبِ ، في جِيدِهَا حبلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾** . وهذا رواه الشيخان .(٧٩)

جـ - **المرحلة الثالثة** : الدعوة جهراً ، مع الأذن للمسلمين بقتال الذين آذوهم واعتدوا عليهم ، وأخروجهم من ديارهم بغير حق ، إلا أن يقولوا ربنا الله واستمرت هذه إلى عام صلح الحديبية .(٨٠)

د - **المرحلة الرابعة** : الدعوة جهراً مع قتال كل من وقف في سبيل الدعوة من المشركين أو الملاحدة أو المحرفين من أهل الكتاب ، وكانت هذه المرحلة هي التي استقر عليها أمر الشريعة الإسلامية ، وحكم الجهاد في الإسلام كما بينته سورة التوبة .(٨١)

وهذه المراحل تحتاج الى وقفات متأنية للدراسة والتحليل لا يتسع لها هذا البحث وخصوصاً تعقيب القرآن على الغزوات الكبرى كبدر وأحد والأحزاب والحديبية ، واجلاء اليهود وغيرها .

خامساً: آيات العتاب التي تبين جزءاً مهماً من سيرته عليه الصلاة والسلام:

وسوف أكتفي بذكر بعض الأمثلة فيما يتعلق بآيات العتاب: -

المثال الأول: قال الله تعالى: **﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يُثْخِنَ في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبَق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾**. (٨٢)

روي مسلم في أفراده من حديث عمر بن الخطاب قال: لما هزم الله المشركين يوم بدر، وقتل منهم سبعون وأسر منهم سبعون، استشار النبي (ﷺ) أبا بكر وعمر وعلياً، فقال أبو بكر: (يانبي الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والأخوان، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا علي الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً، فقال رسول الله (ﷺ): ماترى يـاابن الخطاب؟قلت: والله ماأرى مارأي أبو بكر، ولكن أرى أن تمكنني من فلان، قريب لعمر، فأضرْب عنقه، وتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من أخيه فلان فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أنه ليس في قلوبنا هوادة للمشركين، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم، فهوى رسول الله (ﷺ) ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، فأخذ منهم الفداء، فلما كان من الغد، غدوت إلى رسول الله (ﷺ) فإذا هو قاعد وأبو بكر الصديق وهما يبكيان، فقلت: يارسول الله، أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت. وإن لم أجد بكاءً تباكيت، فقال النبي (ﷺ) (أبكى للذي عرض عليَّ أصحابك من الفداء، لقد عُرض عليَّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة) لشجرة قريبة، فأنزل الله **﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى﴾** إلى قوله **﴿عظيم﴾**. (٨٣)

ومعنى قوله: هوى رسول الله ما قاله أبو بكر: أن رسول الله أحب واختار ذلك، لأنه من اليسر والرحمة بالمسلمين، إذ كانوا في حاجة إلى المال، وكان رسول الله (ﷺ) ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما. (٨٤)

وروي أن ذلك كان رغبة أكثرهم، وفيه للمسلمين قوة، وهم في حاجة إلى المال، ولما استشار رسول الله (ﷺ) أهل مشورته تعين أنه لم يوح الله إليه شيء في ذلك، وأن الله أوكل دلك إلى اجتهاد رسوله، (ﷺ) فرأى أن يستشير الناس ثم رجح أحد الرأيين باجتهاد، وقد أصاب الاجتهاد، فإنهم قد أسلم منهم حينئذ: سهيل بن بيضاء، وأسلم